**المحاضرة : 3 ـ 4**

**الدرس النحوي في بغداد :**

**تردد لدى عدد من الباحثين وهم يرصدون تطور الفكر النحوي أن في بغداد مدرسة نحوية وسمّوها مدرسة بغداد وكلك قالوا عن الدرس النحوي في الأندلس و في مصر والشام 0**

**والحق إننا لا نريد أن نلغي كياناً علمياً له سمات ومنهج المدرسة النحوية , عرفته حركة ضبط اللغة والاتساع في درس قوانينها التي تمكّن من النطق الصحيح , ولكننا حينما نتأمل الحركة اللغوية في بغداد نجد أنها لم تستقل استقلالاً تاماً عن مدرستي الكوفة والبصرة وإنما كان الدرس اللغوي في بغداد ينهج نهج استخلاص زُبد الأشياء من المدرستين وتأليف ما اختلف في الظاهرة اللغوية والنحوية خاصة , لذا فإن مـا كتبه مؤرخو الدرس النحوي في بغـداد يفيدنا بما يأتي :**

1. **لقد خلط أصحاب التراجم والطبقات بين النحاة الذين استقروا في بغداد لتدريس النحو ولم يتعقبوا بدقة مذاهبهم النحوية من خلال الاطلاع على جميع مؤلفاتهم , فكانوا ينسبون صاحب المذهب الكوفي إلى البصرة وصاحب المذهب البصري إلى الكوفة مما ولَّد إرباكاً لدى كثير من الباحثين المعاصرين الذين كتبوا في تاريخ النحو أو مدارسه 0**
2. **فهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة تقوم على منهج أكاديمي ينأى بصاحبه عن التعصب ويقرِّبه من الموضوعية التي تقود وحدها إلى كشف الحقيقة العلمية 0**
3. **من المعروف لدى من يُعنى بمؤلفات أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني أنهما أطلقا تسمية البغداديين على الكوفيين فلم نلحظ مثلاً في كتاب ( الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب ) لأبي علي الفارسي ذكراً للكوفيين إلا في موضع أو موضعين ,وقد ساق ذلك في معرض ذكره للخلاف النحوي بين أوائل النحاة من الكوفيين والبصريين , وحينما يتحدث أبو علي الفارسي وابن جني عن البصريين يقولان : (قال أصحابنا ) ويفهم من ذلك أنهما يعلنان الانتماء إلى المدرسة البصرية في وقت يرى الباحثون المحدثون ، عدا الدكتور المخزومي ومن تابعه،أن أبا علي الفارسي وابن جني هما اللذان أسسا مدرسة بغداد كما يسميها أولئك الباحثون 0**
4. **قام الدرس النحوي في بغداد على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية , فلم يُحدث البغداديون تغييراً في أصول النحو أو فروعه حتى يقال : إن هذه مدرسة أخرى , وإنما استعملوا منهجاً يحاول التوفيق بين المدرستين واختيار الرأي الميسر في المسائل النحوية من أي المدرستين جاء 0**
5. **إن هذا القول لا يقلل من جهود أعلام الدرس النحوي في بغداد , فقد أضافوا إلى المعرفة النحوية سُبلاً إلى التقريب والتبسيط 0**
6. **من السمات التي يتسم بها الدرس أنه طبع بطابع المدرسة الكوفية , فأنت تجد نزعة النحو الكوفي عند أعلامه ومنهم ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط , وفي هؤلاء الثلاثة يقول الزجاجي : ( من العلماء الذين أخذت عنهم أبو الحسن ين كيسان وأبو بكر بن شقير وأبو بكر بن الخياط ؛ لأن هؤلاء قدوة أعلام في علم الكوفيين , فكان أول اعتمادهم عليه – على علم الكوفيين – ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العِلمين ) [الإيضاح في علل النحو:77] , ويقول في مكان آخر من كتابه وهو يورد جملة وجوه لاحتجاج الكوفيين وآرائهم : ( وإنما نذكر هذه الأجوبة عن الكوفيين على حسب ما سمعنا ممن يحتج به عنهم من ينصر مذهبهم من المتأخرين وعلى حسب ما في كتبهم إلا أن العبارة عن ذلك بغير ألفاظهم والمعنى واحد , لأنا لو تكلفنا حكاية ألفاظهم بأعيانها لكان في فعل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة بل لعل أكثر ألفاظهم لا يفهمها مَن لا ينظر في كتبهم وكثير من ألفاظهم قد هذَّبها من يحكي عنهم مذهب الكوفيين مثل : ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وابن الأنباري , فنحن إنما نحكي علل الكوفيين على ألفاظ هؤلاء ومن جرى مجراهم مع أنه لا زيادة في المعنى عليهم ولا بخس حظ يجلب لهم )0**
7. **من المعروف أن البحث النحوي سابق على البحث الصرفي ذلك بأن العلماء أرادوا استدراك اللحن في العبارة وتقويم اللسان في إعراب الإنسان عمّا في نفسه بلسان عربي مبين , ثم التفتوا إلى الفساد الذي دبَّ إلى الألسن في نطق المفردات أي : في بنية الكلمة وحركات حروفها واشتقاق الأفعال وبنية المشتقات , فأرادوا أن يصوغوا قوانين تعصم اللسان عن اللحن في ذلك وترسي قواعد يُبنى عليها الاشتقاق , لاسيمّا أن العربية تمتلك ثروة هائلة من المفردات عصية على الحفظ والاستظهار , فكان ذلك باعثاً على وضع قواعد علم الصرف فقد بدأ عند الكوفيين قبل البصريين , واشتُهِرَ من علمائهم في التصريف ( معاذ الهرَّاء ) , وكنَّا قد استفدنا من ذلك استنتاجاً في مكان آخر من المحاضرات مفاده أن جميع الباحثين الذين أرَّخوا لعلوم العربية اتفقوا على أن البحث النحوي سبق البحث الصرفي , يقولون إن مدرسة البصرة شُغلت بوضع النحو فتأخر عندهم البحث في الصرف لذا سبقهم الكوفيون إلى ذلك , ولما كان الترابط بين قيام النحو وقيام الصرف متيناً وينبئ بسبق النحو على الصرف , وهذا ما اتفق عليه العلماء من الأقدمين ، والباحثون من المحدثين , فلا يجوز أن نتصور عدم قيام البحث الصرفي عند الكوفيين عن بحثٍ نحوي سبقه , وإنما الصحيح أن الكوفيين شغلوا بنحو القرآن قبل البصريين , وبعد أن أوشكوا على الانتهاء من ذلك ألّفوا في الصرف فلا بد من القياس الواحد في هذه المسألة والاستنتاج المبني على ما تقدم وما لاحظناه من تأثر بالقراءات القرآنية يفيد بأن الكوفة سبقت إلى التأليف بالعلمين النحو والصرف لكن لم يظهر عندهم كتاب مثل كتاب سيبويه الجامع المانع الذي طارت شهرته في الآفاق 0**

**ومن الملاحظات الأخرى التي تذكر من سمات الدرس النحوي في بغداد ما يأتي :-**

1. **يقرر تاريخ اللغة العربية أن وضع قواعد اللغة وضبطها قديم بجهود مدرستي الكوفة والبصرة وكل ما جاء بعد اكتمال علم المدرستين هو شرح وتبسيط وتوسيع ، والانطلاق منها إلى سعة في البحث يكـون للعقل فيها كبير أثر 0**
2. **حينما انتقل الكسائي إلى بغداد واتسع فيها الدرس النحوي كان ذلك الدرس ينطلق من مدرسة الكوفة دون أن يغفل جهود علماء البصرة 0**
3. **حُسم الصراع الفكري بين المدرستين بانتصار الكسائي على سيبويه في المناظرة المشهورة المسماة ( المناظرة الزنبورية ) والتي جرت في بغداد 0**
4. **بانتهاء عصر الكسائي والفرَّاء استمر الدرس النحوي في بغداد يتجه إلى المسائل الخلافية بين المدرستين على سبيل التقريب بين الرأيين في كل مسألة أختُلف فيها فضلاً عن التوسع في الدراسات الصوتية والصرفية وهذا ما يميز الدرس النحوي في بغداد 0**
5. **استفاد الدرس النحوي في بغداد من الازدهار الفكري الذي تمثل في المناظرات الكلامية فاتجه إلى البحوث العقلية في المسائل اللغوية عامة 0**
6. **يتمثل ذلك في مؤلفات ابن جني وجهده الكبير في الدرس الصوتي والصرفي الذي وسع من جهود أستاذه أبي علي الفارسي وارتسمت عليه ملامح المباحث العقلية , غير أنه لم يفرط بالأصـول التي وضعتها الكوفة والبصرة 0**
7. **نجد أن ابن جني يقول : ( اعلم أنك إذا أدَّاك القياس إلى شيء ما سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه ) , ويُشَم من هذا النص رائحة المدرسة الكوفية التي تحترم السماع أشد الاحترام 0**
8. **ما يؤكد أن الدرس النحوي في بغداد لم يكن مدرسة مستقلة , قول أبي علي الفارسي وابن جني عن البصريين ( قال أصحابنا ) فالانتماء إلى مدرستي البصرة والكوفة لم يختفِ عند علماء بغداد 0**

**ويقول الدكتور رحيم الحسناوي : ( فلا نوافق مَن ذهب إلى ظهور مدرسة في بغداد ومدرسة في الأندلس ومدرسة في مصر والشام , وإنما هناك درس نحوي استند إلى المدرستين ) 0**